

التفاعل الوجداني بين المكانية والشاعرية

قراءة نماذج من الموروث الشعري العربي.

Emotional interaction between space and poetry
- Reading samples from the Arabic poetic heritage-

عبد القادر بن فطة*

تاريخ النشر: 2021/09/15	تاريخ القبول: 2021/05/17	تاريخ الإرسال: 2020/08/10
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

لنا مع المكانية وقفة تأمل في المعجم الدلالي للموروث الشعري نستجلي بعض معالمها، ونقلّب النظر في جمالها داخل القصيدة، فقد خُصّت بقراءة شعرية تكون على قدر كبير من الدقة والإتقان والتقيّد بالأحكام، هذا القدر من الدقة كان مثار انتباه الذوق العربي وإعجابهم به والتنويه به. فما سمعوا من قبل من هو أجود نطقاً، وأفهم دلالة، وأسرع إجابة، وصفه النقاد بزينة الشعر، فشجاعة الشعراء تقرّرت بموجب مقاييس أعلى رتبة وأجلّ قدراً وهي موضع ارتباط بالبيئة. إنّها الأصل الأعظم، والركن الأهم في شخصية الشاعر ليجد مكانه رحباً في القلوب.

نشطت المكانية في حضن الموروث الشعري، فأتسعت ميادينها من جراء تزايد أهل النظم إليها فاشتعلت أفكارهم المشعة تجمع بين المتعة الفنية والجمالية. الكلمات المفتاحية: المكانية، الشاعرية، الموروث الشعري.

المؤلف المرسل: بن فطة عبد القادر benfetta@univ-.Abdelkader

* جامعة مصطفى اسطمبولي. معسكر. Abdelkader.benfetta@univ-mascara.dz

Abstract:

Through this paper, we deal with the notion of "Spaciality" within the semantic glossary of poetic heritage. We exploresome of its features, looking at its beauty within the poem. Similarly it was a subject of accurate readings with a great respect of rules. This degree of accuracy was the focus of Arab interest and admiration, as they have never witnessed such finest words, understandable significance and quick answer. The critics consider it as the best of poetry . The position of poets were decided according to high measures which is mainly the relation to the Space, it is the greatest pillar of the poet's personality, in order to influence the receptors.

Spatiality had originated and developed within the poetic heritage, its fields had expanded due to the increase of poets working on such issue, whose ideas combined artistic and aesthetic pleasure

Key words:spatiality, poetic, poetic heritage

*** **

. مقدمة :

إنّ المتدبّر في التفاعل بينالمكانية و الشاعرية في الموروث الشعري يرى أنّ تركته عظيمة باتت مترامية الأهداف، أبانت عن عبء ثقل تحمّله الشعراء كونه عتادا حضاريا في الإنتاج الأدبي، استوعب المساهمة الجليلة التي حققت الأصالة.

إنّ العلاقة وثيقة بينهما فإدراك جمالها ينبع بالضرورة من ذات الموضوعات التي تحقق التوازن و الاتّساق والوحدة بين المضامين والغايات. نلمس فيها إحياءات سامية تنبعث من عنصرين سمو النص الشعري، والمشاركة الوجدانية لدى الشاعر الذي أضفى عليها لمسات دقيقة، ومنهجا منفردا يتجلّى في الوضوح وصدق التصوير. فالتفاعل بين الشاعرية والمكانية حقيقة أدركها القدامى، و عرفوا قيمته الفنية.

فالتفاعل يهزّ الفطرة فيجعله يتجاوب مع أعمق موسيقى كونية، و تتلذذ أنبل النغمات التي لا يمكن إيجادها في سياق آخر غير الشعر العربي الأصيل. لا غنى عن المكانية

التفاعل الوجداني بين المكانية والشاعرية: قراءة ...

والشاعرية اللتين تجعلان التفاعل يبلغ درجته العالية. فهو يمثل جانباً متميّزاً من الإبداع الشعري في إبانة الكلام على صورة توضّح اللفظ وتكشف عن المعنى.

وقد اعتمدت منهجاً استقرائياً يعتمد على الوصف والتحليل للوقوف على المظاهر البارزة للتفاعل الوجداني، لما له من خصائص وسمات تعبيرية ودلالية، ما جعله موضع اهتمام لدى القدامى، كونها من معالم العبقرية الشعرية. إنّه يشكّل جوهر الجودة للنصّ تردّ لدوافع سياقية، وتحمل أسراراً لغوية، وتتضمن مقاصد محددة متعاضدة مع لوازم شعرية ظاهرة أو خفية.

السؤال المطروح: هل كان للموروث الشعري العربي مخزون ضخم من الأسرار و
الأشواق التي ناء به التفاعل بين المكانية والشاعرية؟

بين الجمالية المكانية والأصالة الشاعرية

إنّ التأمل في أسرار التفاعل الوجداني بين المكانية والشاعرية، والإغراق في التفكير في حقائقه يجعل المتلقي يقف عند حدود الإبداع الشعري الدال على الأساس الفطري الذي تقوم عليه حياة الشعر. فالشواهد كثيرة تؤكّد على ما كان عليه من ملكة خاصة لدى الشعراء في فهم البيئة و استيعابها للمحافظة على روح العروبة ورفض التبعية، فحرصهم على المكانية من مظاهر الغيرة على الطابع الذي يمثّله الذوق العربي، وإعطاء التفاعل بين المكانية والشاعرية الجودة وإنمائه في رحاب رحية، كما يمدّ الشاعر التوازن بين الانتماء و علو الهمة وهو يخوض معارك الحياة مع الأفكار الزائفة الوافدة مع العجم. ففي التفاعل تكاملية تجمع حصيلة بينيتين الجاهلية و الإسلامية(علاقة الإنسان بالمكان ليست علاقة سهلة، بل هي معقدة، خصوصاً عند الشاعر الجاهلي الذي كان يعيش على نظرية الموت والحياة، والأمل والتشاؤم، "فهناك أماكن جاذبة تساعدنا على الاستقرار، وأماكن طاردة تلفظنا، فالإنسان لا يحتاج فقط إلى مساحة فيزيقية جغرافية يعيش فيها، ولكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره، وتتأصل فيها هويته)¹

فالسمة البارزة في هذا التفاعل تحقيق الأصالة التي تتطلب شخصية قوية الإرادة تشكّل ثورة والاستبسال تحافظ على القيم العربية التي شكّلت حلقة وصل بين الشعراء وبيئتهم وما حوته من ذوق رفيع انصبّ فيه سحر البيئة و أجود ما أنتجته قريحة الشعراء. وهذه محاولة أهل الشعر ناجحة في الأخذ بزمام هذه الحركة التفاعلية بين المكانية والشاعرية التي بلغت مرحلة النضج على يد فحول الشعراء في بيئة رضعت الشعر من رحم السليقة العربية المفخرة التي تباهى بها الموهوبون، وتلك معلم الطبع المتأنف الذي يعرض الربوع والأطلال الزاهية كأنها أهلة. فالمكانية من خلال الموروث الشعري تصوير عربي قحّ، و قلب القصيدة ينبض بالحيوية، و يفيض بصفاء الحياة تزواج فيها الشعر بالمكان. فالشاعرية تتوهّج هوى لتقطن المكانية لئلا (العلاقة بين الشعر والمكان علاقة عميقة الجذور، متشعبة الأبعاد، ومن خلالها قد يصب الشاعر على مكان ما طابعاً خاصاً، فيحوّله من مسكن خرب إلى طلل مثير، ومن حجر أصم، إلى شاهد على لحظات مجد أو وجد، وقد تكتسب بعض الأماكن شاعرية تكاد تلازمها؛ كالقمر والبحيرة والغابة وغيرها)² عاش التفاعل المباح في كنف القصيدة، تولّدت عنه قصص هيام بين الشاعر والمكان فغرق فيه طالبا للذة،

والتعلّق بالحياة في جوف الصحراء و الحضر، و النشوة التي ملكت سرائرهم، فاندفعوا في تصوير القفار و الفيافي والوديان و الجبال، و التنقيب عن الجمال الذي تخبّئه المكانية فهي الروح التي يتكلم بها الشعراء. فلم يذكروا إلا عيشهم الذي لامس سرّة وجدانهم، فتجدهم أخلق الناس تلطفا في مداعبة بيئتهم التي تحمل صور حياتهم الخاصة من شكيمة ونخوة و عشق و هوى. إنّ في مثل هذه المظاهر همّة و إباء يبلغ حدّ القريحة على ذوق صاحبها. وأهمّ ما في هذا التفاعل أنّه ينشر ملاءة المكانية للشاعرية وما يتدفّق منهما من معاني عربية المطروحة في الوعي الشعري، فكلّ شاعر يريد الرفع من شأن القبيلة لتسبق في المجد و التخليد دون المساس بكرامة العرق العربي.

التفاعل الوجداني بين المكانية والشاعرية: قراءة ...

و الواضح ما في هذا التفاعل من تنويه الشعراء بأصلة المكانية العربية، و إثباتهم حبهم لها، و تحقيق صدقهم لها فتواردت في الموروث الشعري مواقفهم تقوّي سجّل تفاخرهم ببيئتهم. فذكر المكان يمثّل حركة تنفخ المآثر في التراث العربي و أصوله العتيقة. فالخبير ببواعث الشعر العربي في هذا المجال يطلّ على ما في وجدان الشاعر من تَوْجّع العاطفة في تحقيق مهمة و هي الاستئناس بالمواعيد السابقة، و المكارم التليدة ليحي التجربة المادية والمظاهر الحسية فتفوح في مزاجه فحالاته. فالتفاعل مستودع يحفظ بريق المكانية، و يكون شاهدا على إيمان الشاعر بترسّبه في قاعها (إنّ كل الأماكن لحظات عزلتنا الماضية، و الأماكن التي عانينا فيها من الوحدة، والتي استمتعنا بها و رغبنا فيها وتألّفنا مع الوحدة فيها تظل راسخة في داخلنا لأننا نرغب في أن تبقى كذلك).³

إنّ الموروث الشعري يحمل جدية الشعراء الحسية، و الولاء للمكانية يدافعون عنها، وجة قاطعة على إخلاصهم له. وبقياس أشعار العرب الأقحاح نشمّ حرارة الدّم العربي تسري في عروق الشعراء منهمة كالمتني، بينما نجد المولدين كبشار وأبي نواس تطغى عليهم العنصرية المنبعثة من رحم الشعوبية تغذيها الزندقة مفتخرين بأثار الحضارة الفارسية. نظروا إلى البيئة العربية رؤية قميئة وصفوها كمرتّع للهو و الخلاعة ومظهر للغلظة والجفاء يقول بشار بن برد في قصيده منها⁴

هل من رسولٍ مخبرٍ عني جميعَ العربِ

يتهمّ الشاعر على العرب قادحا ديارهم بعنصرية لازعة مستصغرا الأعراب معتدّا بقومه رغم عاهته (تصور ضراوة حقه العنيف على العرب، وقد مضي يقارن بين بداوتهم الجافية و حضارة آبائه اللينة من الفرس و الروم. و في الحق أنّ شعوبيته كانت صارخة، إذ كان زنديقا و عدّوا للعرب و دينهم الحنيف عداوة ترسب في ضميره وفؤاده)⁵ بيد أنّ التفاعل جعل المكانية في الموروث الشعري تبدو زاخرة بالجمال و الأصالة تخطف الأفتدة، جنة يانعة ازدهرت فيه الحضارة و امتزجت فيها الثقافات واكبت الفتوحات الإسلامية. ليس مجرد جماد بقدر ما هو إشعاع ينبئ أهل النظم من العرب

سوف يخلدون جزءا كبير من بيئتهم بين هذا الثراء الهائل من أسماء المكان، واليقين العميق بأن فضل هذه التفاعل لا يقف عند الفائدة الدلالية، بل هناك سمو في الجمال تفتحت أعين الشعراء عليه وهو يومئذ ميدان للإنتاج والإبداع. وجد أشعارها صداها في المشاعر الحية لكل متلق وأمتعت مزاجهن، اكتسب مغزى واسعا كوثيقة إنسانية مهمة في دراسة التراث الأدبي.

جمال اسم المكان في الموروث الشعري علا شأنه فقد أفسح صدره للموهوبين الذين احتشدوا في بلاطه، ساهم في تنسيق أفكار الشعراء، وتحديد نوعية المفردة لمختلف التراكيب من أجل توفير أعلى درجات الرقيّ بشكل متين وعجيب خال من التعرّج، لا يترك فراغات للطاعنين في التراث الشعري لينفذوا إلى أعماق النص فيجفّفوا الهيكل الجمالي لاسم المكان من طابع الثبات مما جعله مستقرا وآمنا في كنف القصيدة، وأضفى عليها البساطة والمتعة، وقد منحها أهمية خاصة لكونه مدّ الحماية للشخصية العربية، كما أنّه بمرور الزمن أصبحت له السيادة في النظم.

اجتمع جمال المكانية وأصالة الشاعرية على السليقة العربية الخالصة والذوق السليم المصقولين استلهموهما من مجاميع ملكتهم التي تعجّ بالخيال الملهب والأنفاس المتقدة، تجد الشعراء من خلال هذا التفاعل راضين ببيئتهم مقتنعين بشاعريتهم التي هي منبع التغني بعروبهم ما يدلّ على شَمَمهم. إنّ التفاعل الوجداني ينصع على حقيقته في تصوير الحياة التي يحيها الشعراء لا تشوبها أوضار و الدنيا مشحونة بالعزّة. حاولوا إثبات إحساسهم العميق بالولوج في أجواء ذات إحساس مرهف، يتجلّى فيها الإبداع الرفيع بعيد عن الإسفاف. و المتفهم لهذا التفاعل يلمس فيه فطنة ثاقبة و نماء في الأفكار والخصوبة في المشاعر، يكشف عن شخصية الشعراء الذين يهزّهم الجمال، وتطربهم المشاهد الخلابة، ينابيعها الذود عن الرقعة الجغرافية. والثورة على كلّ المستهجنين.

فجمال المكانية وأصالة الشاعرية ابتلعا اليأس وأقبر الآلام، وفجّرا العبقريّة و صهرا النفوس، و جعلوا البصائر تعشقهما قبل النواظر. فالتفاعل جعلهما جوهرة منيرة لا

التفاعل الوجداني بين المكانية والشاعرية: قراءة ...

يملّ منهما المتلقي لما فهمما من خيال صاف، وخواطر لطيفة و براعة في التصوير ترسم نفسية الشاعر على حقيقتها.

المكانية في ضوء نماذج شعرية:

لقد كرّس الشاعر مبدأ التبعية للمكانية بالوعي و الفهم قصد الارتقاء بجماله، وجعله منارا يبعث شعاعه لكشف عن إعجابه بالبيئة العربية. فاسم المكان في الشعر العربي أعطى ثماره، و نتج عنها امتداد يد الشعراء الأمانة لاستخراج جملة من الأسرار. ارتقى بها إلى مستوى عال لا تعسّف فيه، بل هو دال على قيمتها، و دقّة استعمالها وقرب به المتلقي إلى الموروث الشعري. فالإحساس بالقيم الجمالية لهذا التفاعل لا يكون منفصلا عن حياة الشاعر لأنّها ضمن الحركة والإبداع عن طريق الكلمات المعبرة، فهي تجعل السامع أو القارئ يتجاوب مع النص، وتنسجم الميول معه لتناسق المعاني التي تثير الفطرة بطريقة مباشرة.

عناية الشاعر باسم المكان دفعه إلى ملاحظة خصوصياته التي ينفرد بها وكانت الدافع إلى استجلاء جماله، فالشاعر العربي وقف وقفة تدبّر للكشف عن مستويات استعمال الاسم في موضعه قال امرؤ القيس:⁶

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

إنّ الأمكنة التي ذكرها الشاعر (اللوى، الدخول، حومل) تمثّل المضمار العام الذي بموجبه يتم ذكر المكان ويكون السياق دعامة الترابط بينها و بين معناها، فالدلالة تكسب اسم المكان النمو والتطور يتماشى وحاجات المقام (الشعر في الحنين إلى الوطن والديار، مختلط بالحب والعواطف التي تشهدها هذه الأطلال)⁷

فالمكان أخذ الصدارة في تطويع ذوق الشاعر إلى كسب إحساس خفيّ يومئ إلى علاقة هيام مع الرحاب التي كان يرتع فيها. يصوّر مشاعره من خلال لهفته إلى هذه الأماكن حتى يكاد الشوق يتعب من الحنين. إنّه يحاور الطلل حين أطلعت الآلام ما خلفته السنين من خطوب، يريد أن يحتضن المكان والزمان.

إنَّ اسم المكان بمعناها العميق الشامل ينطوي على دلالات أبعد مدى وأكثر أهمية من مجرد رقعة، فهو يشكّل معجماً يتطلب ذوقاً و ذا مغاز، يشمل حركية اللغة وتأمين الانتقال في جو هادئ عبر أرجائه غير منهك للذهن قال زهير بن أبي سلى:⁸

تبصّرْ خليلي هل ترى من ضعائني تحمّلن بالعلياء من فوق جرثم

لا يقف الجمال عند تصوير المكان "العلياء، جرثم" إنّما يثير نفحة حسية مصدرها وحدة التعلق بالمحيط الذي يهئ المناخ النفسي لتفاعل المتلقي مع وشائجه ليبدّد السأم ويفتح أسارير الملكة. فالغرض الأساسي لاسم المكان هو استشراف آفاق مستقبل في تمتين الطاقة الوجدانية العفيفة وجمال الوعي. فهو يتوقّر على مقومات يستمدّ منها دلالاته الصافية على مدار واسع وهو أنّ البيئة اكسبته الثبات والأصالة وبثّ الروح في ألفاظه.

توسّع جمال اسم المكان نتيجة موقعه المأمون في لبّ لغة الموروث الشعري فجند الشاعر قدراته للزيادة في إنتاجه. فهو ثمرة انبثقت من اقترابه من رقعته الجغرافية. فقد أحضر زهير مهاراته الشعرية التي تكونت لديه عندما كان يعيش تحت سلطة المجتمع، فلم يلبث طويلاً حتى تمخّض عنه زيادة هائلة من أسماء المكان وضعت كوحدة أرقى وأرفع من غيرها، نلمس فيها التجربة الشعرية من خلال معالمها الجليلة التي تدل على ضرورة الاعتراف ببيئته حتى شملت تفاصيل دقيقة .

إنّ استقلالية الألفاظ الخاصة باحترام المكان، والتركيز على روعة تصميمها ودقّة فنيها وطابع المرونة، إذ هي ضمن أنساق بديعة داخل أسوار السياق أخرجت الدلالة من قواقعها ووّسعت مقاصدها قال طرفة بن العبد:⁹

لخولة أطلالٌ بِرُقّةٍ تَهْمِدُ تلوح كباقي الوشْمِ في ظاهر اليدِ
وقوفاً بها صبحي عليّ مطمئّم يقولون: لا تهلك أسمى، وتجلّد

فهذه التطورات وتزايد علو جمال اسم المكان في الشعر الجاهلي الناجم عن ارتقاء لغة الشعر آمن للغة ووظائفها الأساسية، فلم تعد النظرة إلى اسم المكان مجرد

التفاعل الوجداني بين المكانية والشاعرية: قراءة ...

تخطيط لشبكة من الذكريات، بل أصبحت بفضلها الدلالة هادفة إلى تنسيق استعمال المفردة، وترتيب و تحديد نوعية الدلالات لمختلف المقاصد من أجل توفير أعلى درجات الرقيّ، وتوجيه التطور الدلالي لفائدة الموروث الشعري. شيدّ طرفه معجماً يعدّ قلاعاً، إذ حدد أهمية اسم المكان ومقاصدها في كلّ مواضعها في القصيدة، كما أنّ وجوده زاد من هيئته فيمنع من تسرب أي دخيل يشوّه جماله.

إنّ وقوف الشاعر أمام ذلك الربيع "برقة. ثمّهد" هو انفعال داخلي جعل شاعريته تسترجع الماضي ليخفّف من ثقل الجوى والمشاعر الغريبة (إحدى ضرورات التعزي لدى الشاعر عن آلام حاضره ذلك أن حديث الذكريات قد ينتشله من كآبة الواقع و يتجاوز به ضغوطه ، ويخلصه من قبحه، و عندئذ يخرجّه من دائرة اغترابه إلى عالم أكثر رحابة وإنسانية يسمح له بتذوّق الحلم ، أو يتجاوز أحزانه)¹⁰

تميّز التفاعل بين المكانية و الشاعرية في الموروث الشعري في العصر الإسلامي بميزات جليلة تتمثّل في العناية بالألفاظ المقتبسة من القرآن الكريم و جمالية المظهر التي تعد معلماً من معالم الشعرية المشخّصة لدى شعراء الدعوة، انعكست هذه المزايا على المستويات اللغوية بشكل واضح، لعبت دوراً حاسماً في إعطائه

طابعاً مميّزاً وسيادة طابعاً مميّزاً وسيتدة مقدّسة يكفل له خصوصيته يمنع انتهاكها وتجاوزها. و تجدر الإشارة هنا أنّ شعراء الرسول ﷺ تفرّدوا بإدراكهم لأهميته برز فيهم أول المخططين لجماله حسان بن ثابت من خلال رثاء للرسول صلى الله عليه و سلم¹¹

بَطْيَبَةَ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَعَهْدُ
مُنِيرٌ وَقَدْ تَعَفَوَ الرُّسُومُ وَتَهَمِدُ
وَلَا تَمْتَحِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ بِهَا مَنَبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ

استعمل الحسان في رثاء الرسول ﷺ ألفاظاً بناها على البعد الجمالي (طيبة، دار حرمة) فقد عرّج على الصور اللفظية التي تلامس الذوق و تكشف عن الدلالات المتنوعة. جسّد اهتمامه بالأخلاق الفاضلة للرسول صلى الله عليه و سلم. اهتم بصورة خاصة في إضفاء ملامح الجمال على المكانية عكست نفوذ و تأثير شخصية النبيّ الكريم في شاعرية

حسان، فكانت على درجة عالية من النظام و الصفاء، ارتقت إلى دلالات سامية تتجلى في التمييز بين الحق والباطل، ورافق ذلك جهود الشعراء الذين مدحوا الرسول صلى الله عليه وسلم. إنّ سموّ الدلالة يعكس لنا قيمة الاقتراب من الرسول صلى الله عليه وسلم التي فرضت وجودها على المفردة العربية الجاهلية، كما أنّ وجود الرسول صلى الله عليه وسلم أمامه زاد من هيبتها لتنفيذ إلى أعماق الدلالة فتساعد على تهذيبها، وتمنع من تسرب أي دخيل يشوّه جمالها اللغوي، و جمال محادثة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ارتبطت المكانية في عصر النبوة بالغزوات لنشر الدين، و معاقبة المشركين الذين نصبوا أنفسهم منازعين لإسلام فغرتهم الحمية لردع أهل الحق، لكنّ جيوش المسلمين التي تدين بالطاعة لله دكتهم في قعر دارهم. ومن أعظم المعارك التي خاضها المسلمون (مؤتة) التي برز فيها عبد الله بن رواحة مشجعاً أصحابه رغم قلة العدد قاتلاً¹²

جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ أَجَاٍ وَفَرَعٍ تُغَرُّ مِنَ الْحَشِيشِ لَهَا الْعُكُومُ
حَذَوْنَاهَا مِنَ الصَّوَانِ سَبْتًا أَزَلَّ كَأَنَّ صَفَحَتَهُ أَدِيمُ

تظهر صرخة الشاعر قبل الغزوة من أعماق قلبه أثارت عزائم الصحابة بالنقمة على الكفار رغم كثرة عددهم فأنشد قصيدة يحبب الجهاد ويؤثر الحكمة (الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور ينم عن عميق شعوره، و الشاعر الحق هو الذي تتضح في نفسه تجربته، ويقف على أجزائها بفكره ويرتبها ترتيباً قبل أن يفكر في الكتابة).¹³

وقف عند ذكر الأماكن المشرفة مهّدت بدحض المارقين منها (أجا أحد جبلي طيء، الفرع اسم موضع) فهي تبعث في النفس السكينة و الاستقرار، وترويض العزائم، و ما يعين على الإقدام والنشاط، ويدفع عنهم الركود. و لعلّه من الحقائق التاريخية في الغزوات و الحروب أن التفاعل بين المكانية و الشاعرية ترك أثراً في السجاياء، ومنحها نماء و تزكية، يحمل صدق المكان وومضات فنية تنزلق المعاني طواعية، و تنمو الغايات تلقائياً يشدنا إلى نسائمه و يؤسرنا داخل وشاحه.

التفاعل الوجداني بين المكانية والشاعرية: قراءة ...

عشق الغزليون المكان الذي هيّم عقولهم، وكان زينة للعشاق، استبدل طبعهم بطبع يمتدّ إلى المستقبل ليؤكد فاعليته حتى يعدو ضربا من الهلوسة هذا ما نقف عليه عند كثير عزة في قوله:¹⁴

فما روضة «بالحزن طيبة» الترى يمُجُّ الندى جثجاؤها وعراؤها
بمنخرقٍ من بطنٍ وادٍ كأنما تلاقَتْ به عطّارة وتجارها

تفنّن كثير عزة في تصوير الروضة عازفا تصاحبه محبوبته، حتى يبقى له ذكرى لا تنسى، فهو يخاطبها بخطاب المتيمّ يلزمه الزفير والشهيق و يتخلل ألفاظه الوجد لا يخلو من إيقاع يسرق اللب ولا سيما حينما يهجره الحبيب (فالتشكيل المكاني معناه في القصيدة معناه إخضاع الطبيعة لحركة النفس وحاجتها، وعندئذ يأخذ الشاعر كلّ الحقّ في أن يشكّل الطبيعة و يتلاعب بمفرداتها الناجزة كيفما شاء وفقا لتصوراته الخاصة).¹⁵ فالمكانية عن كثير عزة عرسا مملوءا بالطرب والذي يصغى إليه يتيقّن أنّه من نفحات الطبيعة و قد اهتدى إليها بالتبّل، فقد ابتلي بالهوى و تحيّرت روحه فأصبح يفترش لحدا ضيقا اضطجع فيه.

فالأماكن التي ذكرها الشاعر "كالحزن و منخرق" تشكّل لوحة مترابطة تبعث أنفاسها شاعريته بشحنة دافقة و حركة طرية استطاع كثير عزة أن يضفي على هذا التفاعل سلاسة ناصعة.

و من الشعراء الأمويين الذين تفاعلت شاعريته مع المكانية ذو الرمة الذي تعلّق بالصحراء وهو موروث جاهلي، فعلى الرغم ما يغلب على بيئته من معالم التحضر إلا أنّها شغفته (فعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش في بيئات متحضرة ، فإنّ الصحراء لم تجف ينابيعها في نفوسهم ، بل لقد ظلت ملهمهم الأول في أشعارهم)¹⁶ و في هذا المقام يقول ذو الرمة:¹⁷

ودويّةٍ جرداء جدّاء خيّمَتْ بها هبواتُ الصَّيفِ من كلّ جانبٍ
سَبَارِيَتْ يَخْلُو سَمْعُ مُجْتَازِ خَرْقِهَا مِنْ الصَّوْتِ إِلَّا مِنْ ضَبَاحِ النَّعَالِ

حين نتابع الأماكن التي وصفها الشاعر (دويّة و الجرداء) في فلكه الفني بلغة هادئة لكنّها قاسية ارتسمت فيها ملامح الأحزان في نظرات صامتة، حتى وإن تمتّع بلذة النظر لكنّها مشحونة بالعزلة. بينما ذو الرمة يصف أماكن الصحراء شعر بالوحشة تسري في روحه، فأراد النطق بحمالها فعجز، ثم غمره السكون فكلمة "دويّة و جرداء و هبوات" أرهفت وجدانه فوقع في التأوّه الملتهب، و خيبته صورة الصحراء الساحقة بسراها بيد أن قريحته جعلت الحياة ناعمة ومفتّحة، فالكفاح في شاعريته يخلق التوازن بين الأمل العذب واللوعة المزعجة (وفي هذا الربط يكمن سر من أسرار الجمال الفني في شعر ذي الرمة، و خاصة من أدقّ خصائص الصناعة الفنية عنده).¹⁸

وبدون عناء وجد هذا التفاعل منفذا إلى الصراع الذي كان قائما بين المسلمين والغزاة فتلقى الإضاءة ليحصل على تصوير الأماكن التي استحوذ عيها العدوّ ليسجلّ الأحداث، فأغنى الشعر بالقصائد الغرر تعتد بعلو الهمة هذا نلمسه عند أبي تمام:¹⁹.

يا يَوْمَ وَقَعَةَ عُمُورِيَّةٍ انْصَرَفَتْ منك المُنَى حُقُلاً مَعْسُولَةَ الحَلْبِ

(فعمورية) تحدّد بصيغتها معنى الحدث المعلوم، وجعلته يكشف ضعف الأعداء من الغزاة و المنجمين في الدفاع عن أنفسهم. و دلالتها تبلغ المتلقي بما يهدف إليه الشاعر من توظيف هذا المكان، فالشاعر يؤمن بالإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه.(فعمورية الشخصية و المكان، ساعيا بذلك إلى تعظيم شأن الفاتح، فمال إلى جعل منعها فوق الممكن بحيث لا يكون فاتحها كغيرها ممن حاولها قبل الفتح)²⁰

موقع عمورية بالغ الأهمية إنّها عربية لا يمكن إهمالها و الغفلة عنها لاعتبارها ذات قيمة حضارية. فأبو تمام متشبت بها من أجل أن تعود إلى سابق مجدها، فيؤدي دوره من جديد في إنعاش النفوس و التهوين من ثقل الهموم التي مرت بها حتى يدرك العدوّ جلال التراب العربي الإسلامي، وإلا صار في نظر البعض غريبا عن أرض الرافدين. فأبوا تمام كان بارعا في تخليد المكان له قدرة على صيغة الكلمات مسترسلا في رسم مشاعره المنبعثة عن

التفاعل الوجداني بين المكانية والشاعرية: قراءة ...

نفس شفافة، استخرجت كل ما تملكه من ذوق فني أصيل. و ما من شاعر رضع الحس
الأصيل إلا ارتشف الحرية.

إنّ مقام المكانية في الموروث الشعري العربي من أنفس المنح الخالدة لقيمتها
الفنية، و لعلّ من الشعراء الذين عظموا شأنها أبا الطيب المتنبي يقول معبرا عن خلجات
نفسه وعن مكنوناته فيما يلاحظه من روائع الأمكنة التي رآها خاصة رفقة سيف الدولة
الحمداني:²¹

فَلَمَّا تَجَلَّى مِنْ دَلُوكٍ وَصَنْجَةٍ عَلَتْ كُلُّ طَوْدٍ رَايَةً وَرَعِيلٍ
على طُرُقٍ فيها على الطُّرُقِ رِفْعَةٌ وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْأُنَيْسِ حُمُولُ

شع المتنبي سميدعا بشاعريته الأخاذة ينتقي الأماكن الوهاجة التي تتفق مع
مزاجه بالتكريم والإعجاب فاستراح عند ما وصل بلاد الروم "دُلوک و صَنْجَة" (فأيّ مكان
يرتضيه أبو الطيب؟، وأية بلاد تستوعب آماله العظام ، و هو كما يرى نفسه صاحب
الهمة و العبقرية)²² أبدع المتنبي في تصويرها، وبرهن على أنّ المكان و النص الشعري من
ركائز الخلافة العباسية. والمشهور لديه أنّه لا يريد العيش الجاف، إنّما الحياة الحساسة
الوثابة التي تسحر المكان و تملأه بالسعادة الناعمة في جوانب الإباء، ودحض الأعداء. غيّر
بصدق عن تجلّي نباغته في تجويد المكان، فلم يكن مصوّرا له بل منحه طابعا حضاريا رسّخ
قدم العرب في ذاكرة التاريخ تشيع الغبطة في نفوس الأجيال.

فالحديث عن العلاقة الوجدانية بين الشاعر و المكان يقودنا الحديث عن الشعر
الأندلسي الذي ظفر شعراؤه بضالّتهم المنشودة فأقبلوا على الطبيعة إقبال التهم ، فجعلتهم
يرتعون في أحضانها يتلذذون بجنانها، امتلكوا أحاسيس مدربة، وقرائح مهّيأة لاحتواء
أشجان الغربة، ونوائب الدهر متدفقة بالقصائد الرقيقة المحكمة التي تنشرح له الصدور
و الأنفس. و من هؤلاء الشعراء ابن زيدون في علاقته بولادة في حدائق قرطبة، بلغت مرحلة
من الهيام لا نجد له مثيلا إلا لدى القليل من الشعراء، شحن صلته بالصور الحسية،

واكتنز الباقي سرّة سريره، من أروع ما خلده ابن زيدون في استنطاق المكان و مساءلته
قوله²³

كلُّ يهيجُ لنا ذكرى تشوّقنا إليك، لم يعد عنها الصّدْرُ أن ضاقا
لو شاء حملي نَسيمُ الصّبح حينَ سرى و افاكُمُ بفتى أضناه ما لاقى

الشاعر يرسم صورة دقيقة للمكانية (إني ذكرتُك بالزهراء مشتاقا)، فالمكان له دلالاته الرمزية لدى الشاعر، و لكنّ ثمة اختلافا بحضور القلب و صفاء اليقين مع البوح بالسر الباطن نتيجة الوجد الذي فاض بقوة، وهاج بشدّة غليانه فهذه الصورة الشعرية تعكس آثار الصبابة البروقفة فهي كمستودع للمشاعر الخفية (فالصورة الشعرية عمل في يشير إلى عظمة الخيال المبدع الذي يبعثها من الذاكرة إلى العاطفة السائدة التي تلونها)²⁴

ابن زيدون يبوح عن الاستبطان الكلي فهو ينشد أن يجد استجابة من المحبوب، فألفاظه ذوقية شوقية يظهر نفسه أكثر من عاشق، فالتأوه أصبح تعبيرا عن تألم ارتضاه. إنّه يظهر حقيقة الواقع، و يبرئ نفسه من العي، إذ من العار أن يفترى على النساء بالعبث، فالشعر عنده أمانة ووديعه في ذمته، يتجلى فيه جلال الشاعرية، و تبرز مدارك الفحول وأذواقهم.

و من الشعراء الأندلسيين الذين هندسوا للمكانية لتحمل أبعادا نفسية ابن خفاجة الذي يكنّ للمكان ميلا كبيرا يحمل أحاسيسه المتنوّعة وفي هذا الصدد يقول:²⁵

بين شُقرو ملتقى نهريهما حيث ألفت بنا الأمانى عصاها
ويغني المكاء في شاطئها يستخف النهى فحلّت حباها

ابن خفاجة بلغ القدرة على تثبيت الأمكنة التي رحل إليها، و ضبط أوصافها لتصوير روائعه تبعث على النفس الطمأنينة، فصورة (شُقر) وهي بلدة التي هيأ لها الشاعر الشعرية لتغدو نافذة في ذاته (إنّ المكان الذي يجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا

التفاعل الوجداني بين المكانية والشاعرية: قراءة ...

لا مباليا ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط بل يكل ما في خيال من تحيَّز²⁶ أضفى على بيئته النزاهة المرضية، وأبعد عنها الصور الذميمة السافلة، نصَّب في قصيدته عرشا محترما للمكانية، لم يتعب في ترتيب مشاهدهما. و كان لهذا التفاعل آثار عميقة أكَّد عن عدم الاستغناء عن الأمجاد في تثبيت الأصالة الحضارية، وتوثيق التمسك بالذخيرة التراثية التي تبقى ملازمة للذاكرة المكانية (هو استرجاع الذكريات مع من يصاحبها من ظروف المكان والزمان).²⁷

فقد نذهل حين نقف على ما في اسم المكان من هيبة، فلا يصلح في موضعه غير تصوّر فضل المتحدث عنه، وتنطوي تحته الكثير من ملامح الإعجاب ولعمارة اليميني في صلاح الدين مدائح منها قوله:²⁸

جلبتم إليه النصر أوساً و خزرجاً وما اشتقت الأنصار إلا من النصر
كتائب في (جيرون) منها أواخر وأولها بالنيل من شاطئ مصر

لَقَّحت المكانية شاعرية الشاعر مادامت موثوقة برجل كانت حياه رحلة مستمرة، لا يعرف الركون طامحا في تحقيق العزّة للمسلمين. تشير المكانية في البيتين "جيرون، النيل" على أنّ أمته تمرّ بظروف قاسية لا تعرف الاستقرار في ظلّ شماتة الصليبين. يبدو الشاعر راضيا بمكان ممدوحه ، معجبا به، مهتما بفضائله حتى لا يستولى على العظام إجحاف حقهم وبخس رجولتهم. فإذا لم نحدّق فيها فقدنا جانبا من جوانب دلالتها تعرض للطعن عن طريق تقوّل الطاعنين، ونسجّت حوله الشبهات، إذ للمرضى في مخيلتهم صورة مستقبحة عن المكان فكان الشاعر وافيا في الردّ عليهم.

خاتمة:

أخذت الطبيعة مكانها في نفوس الشعراء، فكانت معراجهم باعتبارها مشكاة تنبعث منها شاعريتهم فيتوهّج عشقهم ليكشف عن صفاء أشواقهم. إنّها آلة موسيقية طبيعية و مطلبا حضاريا لا يراد لها أن يتوقف. تسري في دواوينهم. شعروا بطعم السعادة

والراحة في كنفها، حوّلت حياتهم إلى رحلة دائمة تقاذفهم المكانية و تحاصرهم الشاعرية. المكانية ميراث كبير تعلّق بنباهة العرب خلال تلك الحقب استوفى سحره الذي أنعش السرائر وهوّن عنها صروف الدهر، أحاطت به ملكات نقية ظلت لاصقة بها تزيد في حرمة أمام يد الأعداء التي أرادت تدميره. هذا التفاعل شائق يستميل الذوق لما فيه من إشارات بديعة تجعل المتلقي يواكب بشغف ما يتضمنه من حقائق ترتبط بأحوال الشاعر التي حشد فيها بصدق مغامراته المؤلمة و المفرحة.

النتائج:

1. إنّ منطق التذوّق تمدّه تجربتهم الثرية في مجال النظم، و من هنا كانت مسؤوليتهم ثقيلة ليكون التفاعل الوجداني الذي شغفوا به سبيلا نبيلًا للتهذيب و للنهضة بالإبداع الشعري في أفضل منزلة.

2. إنّ التفاعل الوجداني قد قوي في الشعر، و متّناً أشكالها، ونضجت معانيها، ما جعل الوانح الحضاري يجري في ضمير الشاعر محافظاً على روح العربية.

3. هذا التفاعل يعكس نباهة الشعراء القدامى و المتوجّهة بعناية فائقة إلى الإبداع الذي ينبئك ببراعتهم، فهو يمثّل صدقاً جلياً في تصورهم للبيئة، يتحسس القارئ من خلالها تعلّقهم بجمالها.

4. همّتهم سمت إلى رفع لغة الشعر إلى طراز مرموق يتقطّر لذة ليوقروا في قصائدهم المباح التي ينغمر فيها القراء.

التوصيات:

1. الالتزام بالاستقراء العميق للموروث الشعري والتغلغل إلى لبّ التفاعل الوجداني بين المكانية و الشاعرية، والتقلّب في مناحيه للاستمتاع بلطائفه .

التفاعل الوجداني بين المكانية والشاعرية: قراءة ...

- 2 . العودة إلى حظيرة الشعر العربي الأصيل للتأكيد على عزارة الإنتاج الشعري، وسعة الذخيرة التي يكتنزها الشاعر العربي .
- 3 . استظهار ملكة الشعراء القدامى لتنشئة الذوق الشعري السليم، و تعلّم الأسلوب الرصين تجنباً للزلق في نظم الشعر.
- .الهوامش:

- 1 . ستيتيكيا فيتش ياروسلاف، نجد شعرية الحنين في النسب العربي الكلاسيكي، ترجمة: حسن البنا عز الدين، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية الرياض، ص83
- 2 . أحمد درويش: في نقد الشعر "الكلمة والمجهر"، دار الشروق، ط1، مصر 1996، ص184
- 3 . باشلارغاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط2 المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع بيروت 1404
- 4 . بشار بن برد، الديوان، تحقيق: الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر 1369 القاهرة 277/1
- 5 . شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ، ط8 دار المعارف القاهرة، ص 78
- 6 . امرؤ القيس ، الديوان، تحقيق: حسن السندوبي، دار الكتب العلمية ط5 لبنان 2004، ص 110
- 7 . فريد جحا: الحنين إلى الوطن في شعر المهجر، ط1، المطبعة العربية، حلب، سوريا، ص8.
- 8 . زهير بن أبي سلمى ، الديوان، دار الكتب العلمية، ط1 لبنان 1989، ص 103
- 10 . يوسف خليفة، الموقف النفسي عند شعراء المعلقات، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع القاهرة، ص42
- 11 . حسان بن ثابت، الديوان مطبعة السعادة مصر، ص108
- 12 . عبد الله بن رواحة، الديوان ،دار العلوم، ط1، مصر 1402 ص 149
- 13 . هلال محمد غنيحي، النقد الأدبي الحديث ، دار العودة، ط1 بيروت 1982، ص383
- 14 . كثير عزة، الديوان، دار الثقافة بيروت 1071، ص429 430
- 15 . عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة و دار الثقافة بيروت، ص65
- 16 .. شوقي ضيف، العصر الإسلامي، دار المعارف مصر، ص 386
- 17 . ذو الرمة، الديوان، مؤسسة الإيمان للتوزيع و النشر و التوزيع بيروت 1982، 1/202201
- 18 . يوسف خليفة، ذو الرمة شاعر الحب و الصحراء، دار المعارف القاهرة، ص 331

19. أبو تمام، الديوان، شرح محي الدين الخياط، دار المعارف بيروت، ص56
20. خالد عبد الرؤوف الجبر، بنية قصيدة أبي تمام في فتح عامورية، دراسات العلوم الإنسانية الاجتماعية، المجلد 14، 2014، ص68319و
21. المتنبي، الديوان، المكتبة الثقافية، لبنان، ص 429
22. يوري بولتمان، مشكلة المكان الفني، ترجمة: سيزا قاسم، مجلة ألف، القاهرة، العدد 6، 1986
23. ابن زيدون، الديوان، تحقيق كامل الكيلاني و عبد الرحمن خليفة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة 1932، ص 173
24. هانز ميرهوف، الزمن في الأدب، ترجمة أسعد مرزوق، مطبعة سجل العرب القاهرة 1972، ص81
25. ابن خفاجة، الديوان، تحقيق: مصطفى غازي، منشأة المعارف الإسكندرية 1960، ص363.364
26. أشعار غاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات للنشر والتوزيع ط 5 بيروت 1420 ص 31
27. مراد يوسف، علم النفس العام، دار المعارف، ط 8 القاهرة، ص 248
28. أحمد بدوي، صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره، القاهرة 1960، ص 62.55